وظائف العنوان[1]

جوزيب بيزا كامبروبي
ترجمة عبد الحميد يورايو*

توطئة

تبيّن الدّراسة الموجزة المقدّمة من طرف جوزيب بيزا Josep Besa طريقة ما في اشتغال السّيميائيّات؛ حول موضوع موصوف بصفة جيّدة، إنّه من بين هذه الموضوعات -الصّغرى السيميائيّة التي تؤثّث حياتنا اليوميّة دون أن نولي لها الانتباه، تطرح سؤالا بسيطا: ما هي الشّروط الأوّليّة لكي تدلّ على شيء ما؟

هذا الشّيء العاديّ والملموس، إنّه العنوان (عنوان النّصوص، الأعمال، الأفلام، الخ.)؛ هذه الشّروط الأوّليّة تتلخّص في النّهاية في اثنين، التي يجمعها في ملخّص إجماليّ: (1) لابدّ من إقامة صلة من نمط سيميائيّات وصفيّة بين العنوان وما هو عنوان له، و(2) لابدّ تصوّر العنوان كجزء من النّصّ (الذي يمثّل عنوانا له!).

يبدو هذا الشّرط الأخير مفارقا: رغم أنّه مستنبط من الأوّل. في الواقع، إنّه فقط عن طريق استخدام موسّع (ومسرف) تمّ الاعتياد على اعتبار<<اللّغة الواصفة>> كشيء ينمو ويحافظ عليه خارج اللّغة الجارية واستعمالها الملموس واليوميّ.

مع أنّ مفهوم اللغة الواصفة (أو السّيميائيّات الواصفة) لم تقترح إلاّ من أجل تحديد بعض الأبعاد للنّصوص، التي بدت غير متجانسة وغير قابلة للاختزال في أقسام أخرى. تحديدا، الأقسام اللغوية الواصفة تمثّل قسما من النّصّ، غير قابل للانفصال عنه. والعنوان كذلك، طبعا.

ملاحظة أخيرة قبل ترك الكلمة لجوزيب بيزا Josep Besa: العنوان، مع علامات أخرى، هو من الأقسام النّادرة في النّصّ التي تظهر على الغلاف؛ هو نصّ موازي، كما يقال. لاشكّ في ذلك، لكن مفهوم +

---

* - باحث جزائري بجامعة الجزائر

1 - (منشور في سلسلة وقائع سيميائيّة جديدة، صادرة عن المطبوعات الجامعية في ليموج، فرنسا، العدد 82، 2002)

النّصّ الموازي يحيل هذا المجموع من العلامات على مصاف المكمّلات. آخرون يلحّون على الوظيفة <<الإغرائيّة seductive>> أو <<الترقويّة promotionnelle>>: لابدّ حينئذ من التّفكير في هذا الصّنف الواسع من التّجسيدات السّيميائيّة التي تتجسّد في كلّ توضيبات conditionnements الموضوعات.

للعنوان إذن مكانته داخل سيميائيّات للموضوعات (الكتاب كموضوع سيميائيّ) وليس فقط ضمن سيميائيّات للنّصوص.

جاك فونطاني Jaques Fontanille

نص الترجمة

مقدّمة

مضت ثلاث عشريات على ظهور عمل كلود دوشي Claude Duchet، سنة 1973، المعنون <<الفتاة المتروكة والوحش البشريّ، مبادئ عنونة روائيّة>>، حيث بدا أنّ المؤلّف بشّر بميلاد فرع دراسيّ يكون موضوع بحثه عنصر هو من الصّلابة بحيث يبدو غير قابل للاستكناه. بعد أربع عشرة سنة، في سنة 1987، نشر جيرار جينيت Gerard Genette عتبات Seuils، دراسة شاملة حول الموازيات النّصيّة، حيث عولج العنوان بعمق وبصفة منهجيّة، انطلاقا من تحديد موقعه، تاريخ ظهوره، صيغة وجوده اللّفظيّة، خصائص هيئته التّواصليّة ووظائفه. طيلة هذه المدّة ما بين 1973 و 1987 ، اغتنت الدّراسات حول العنوان بمساهمات شديدة التّنوّع من مصادر مختلفة، إن لم نقل متعارضة: في واقع الحال من لسانيّات النّصّ حتّى علوم الاتّصال، مرورا بنظريّة الحجاج، التّفكيك، جماليّات التّلقّي، التّداوليّة والسّيميائيّات طبعا، فمناهج التّحليل التي تناولت العنوان، رغم تباينها، تلتقي في عنايتها بظواهر إنتاج المعنى وبنائه.

من بين التّساؤلات التي يثيرها العنوان، سوف نتناول ما يتعلّق بوظائفه، لأنّ الجواب الذي نحصل عليه يعدّ شرطا ضروريّا وكافيا لشرح الموضوع نفسه ويكشف عن خصوصيّته. في هذا المقال، نقترح فحص هذه المسألة بعناية كبيرة لم توجّه له حتّى الآونة الحاضرة. سننطلق من عمل جينيت Genette (1987)، وهو المؤلّف الذي، بدون شكّ، قدّم أجود معالجة للموضوع، غير أنّنا سوف نطوّر ونميط اللّبس عن صياغاته مستعينين بإسهامات مختصّين آخرين وسوف نقدّم مفهومنا الخاصّ للظّاهرة.

تمثّل البيبليوغرافيا تقاريرا ملحوظا بخصوص الوظائف الثّلاثة للعنوان، بالرّغم من الطّابع المتذبذب لتسمياتها. تعيينيّة، لغويّة وصفيّة وإغرائيّة، تلك هي النّعوت التي تحيط بصفة أحسن بطبيعة وظائف العنوان وخصائصه. تتكفّل الوظيفة التّعيينيّة بتسمية العمل، ولإدراك ذلك، سنفيد، من ناحية، من التّمييز الذي يضعه كريبكه Kripke بين إسم العلم (المقابل للإسم النّكرة) باعتباره معيّنا صارما، ومن ناحية أخرى، من التّمييز الذي يعود إلى فويّو Vouilloux وهو الإحالة الإسميّة (في مقابل التّلميح). من أجل وصف الوظيفة اللغويّة الوصفيّة التي بفضلها يتحدّث <<العنوان>> عن النّصّ، سوف نستعين بتأمّلات بارثس Barthes حول اللغة

الواصفة، وبوريت Bauret حول تأثيل etymologie السّابقة ميتا -meta، ودرّيدا Derrida حول <<موقعيّة topologie>> العنوان؛ فاللغة الواصفة ليست بالضّرورة وسيلة تهدف إلى التّوضيح، إنّ مراعاة الوظيفة اللّغويّة الوصفيّة تسمح لنا بمراعاة إدانة التّعسّف الحاصل تصوّر هذا الأخير باعتباره شرحا قصيرا للنّصّ. وإذا كان، أخيرا، للعنوان وظيفة إغرائيّة، فلأنّه يتكفّل بمهمّة كسب القارئ، ويصبح حينئذ مثيرا لفضوله نحو النّصّ؛ يفيدنا أيضا كلّ من درّيدا وبارثس هنا لتمييز الفكرة المتلقّاة، المعمّمة كثيرا في البيبليوغرافيا، التي حسبها تكون أغلب الأصول اللغوية المستعملة في العنوان في خدمة هذه الوظيفة.

الوظيفة التّعيينيّة Designative

تسمية النّصّ تعني مباركته. فالعنوان هو اسم العمل، تماما مثل أسماء العلم وأسماء المواضع في علاقتها بالأشخاص والمواضع التي تعيّنها، يهدف إلى التّعرّف على العمل بكلّ دقّة وبأقلّ ما يمكن من احتمالات اللّبس. إنّ الوظيفة الأولى للعنوان هي إذن الوظيفة التّعيينيّة (جينيت Genette 1987). يستعمل بعض المؤلّفين تسميات أخرى لهذه الوظيفة، مثل استدعائيّة appellative (غريفل Grivel 1973)، تسمويّة denominative (ميتيران Mitterand 1979)، تمييزيّة distinctive (غلودنشتاين Glodenstein 1990، بومارشيه وآل Beaumarchais et al. 1987)، deictique (بوخبزة Bokobza 1984، داردل Dardel 1990) ومرجعيّة referencielle (كانتوروويكس Kantorowics 1986). رغم أنّ جينيت نفسه لم يبرّر ذلك فإنّ اختياره الاصطلاحيّ يستند على التّمييز الذي يقوم به كريبكه Kripke (1972) لاسم العلم باعتباره معيّنا صارما designateur rigide(1). في منطق كريبكه Kripke، معيّن ما يعيّن شيئا بصرامة يفعل ذلك في كلّ موقع حيث يوجد الشيء، شرط يتوفّر في اسم العلم. هذا يعني أنّه، في مقابل الإسم النّكرة، الذي دلالته معجميّة والذي يمتلك قصدية تجعله قابلا لأن نتعرّف من خلاله على عيّنات جديدة غير معروفة من قبل (تبدّ يشكّل امتدادا للإسم)، واسم العلم، بما أنّه لا يمتلك قصديّة، ليس بإمكانه أن يوسّع من امتداده إلى ما بعد الشّخص الذي يشير إليه والذي يعرّفه. لذا فإنّ <<ستندال Stendhal>> مثل الأحمر والأسود كلاهما يعيّن شيئا محدّدا هو وحده بالنّسبة لجميع أفراد الجماعة التي انتقل إليها هذا الإسم وهذا العنوان عن طريق التّاريخ.

حسب مقاربة فويّو Vouilloux (1985)، يمثّل إسم العلم والعنوان مكوّنين شكليّين أو ملمحين مميّزين للمرجع بالمعنى الدّقيق للمصطلح (المرجع الإسميّ). يتطلّب المرجع، إذا أخذ في هذا المعنى الحصريّ -ما يسمح بمعارضته، كما سنرى، بالتّلميح - استخدام أحد هذين المكوّنين (أو الإثنين معا) في ملفوظ خصوصيّ. هكذا، لن يكون ملفوظ ما مرجعيّا، بمعنى الكلمة، إلاّ إذا ما سمّى، أي، إذا تضمّن إمّا حضور الإسمين (اسم العلم والعنوان)، أو اسم واحد (اسم العلم أو العنوان). فالمرجعيّة الإسميّة تتّبع على الدّوام خطاطة ثابتة، هي خطاطة التّخصيص الاستفتاحي للإسم، الّذي يسمح الخيال أيضا بتأكيده: لكي يعيّن الملفوظ <<ميناء كاركثويت le port de Carquethuit>> (عنوان لوحة لألستير Elstir في في ظلّ صبايا من الورد A L'Ombre des jeunes filles en fleurs) تعاقديّا، في محيط الجماعة المكوّنة من قرّاء البحث

la Recherche، عملا خاصّا مثل هذا، لابدّ من أن يكون مؤسّسا ومؤهّلا للقيام به، بعبارة أخرى، لابد على النّصّ من أن يحاكي فعل الولادة والمباركة الذي، في فضاء التّبادلات الحادثة في الواقع، كرّس، مثلا، درس التّشريح لرمبراندت Rembrandt. هذا يدلّ على أنّ <<ميناء كاركثويت>> لن يحصل على وضعه كعنوان معيّن للوحة إلاّ بعد أن يتّخذ صيغة مبدئيّة(2).

فعل مثل التّلميح، الذي هو بالنّسبة للمرجع الإسميّ يحمل خاصيّة السّلب، يسمح بفهم أحسن لخصوصيّة الظّاهرة التي نتحدّث عنها. في الواقع، التّلميح، الذي يمكن تمييزه بغياب المكوّنات الشّكلية للمرجع، هو ملفوظ يحيل دون أن يسمّي، أي هو ملفوظ حيث يغيب إسم العلم والعنوان.

نفس الملفوظ يمكنه أن يكون مرجعيّا وإيحائيّا في نفس الوقت، بشرط أن يكون حينئذ الشّيء المحال عليه والذي يلمّح إليه لا يتطابقان: مثلا، عنوان *The Sund and the Fury* يحيل على عمل فولكنر Faulkner الحامل لهذه التّسمية، لكنه من جهة أخرى يلمّح لماكبث *Macbeth* (مسرحيّة يستعير منها فولكنر عنوان روايته)(3). إنّ المرجع من مصاف البصمة، لأنّه يحقّق بصفة مثاليّة هدف السّنن الرّمزيّ (بالمعنى الذي يجعله يتّجه إلى أن يطلق عبارة على كلّ شيء: اسم للكاتب، عنوان للعمل)، بينما التّلميح يكون من طبيعة تشابهيّة (مبداه ليس الرّمز وإنّما الصّورة):

عن طريق التّلميح، لا تقوم القراءة أبدا على التّعرّف وعلى إثبات علاقة بين طرفين، لكن على إعادة تنشيط معنى يكون لانهائيّا عمليّا، والذي لا تتوصّل أبدا مجموعة المأوّلات، وهي مجموعة مفتوحة، إلى استنفاذه كلّيّا. بينما يجمّد المرجع النّصّ المرجعيّ في عمليّة اللّجوء بلا توقّف إلى أقربازين codex (أسماء وعناوين)، يقوم التّلميح على تمييعه بفضل خطوة بالإشتراك الحرّ إلى حدّ ما، بروابط إدراجيّة وتناصّيّة، بمقاربات تشابهيّة مدمجة بالتّماثل أو بالتّماسّ (يجمّع التّلميح علاقات التّماسّ والتّماثل الموزّعة على التّوالي، عند بيرس، على العلامة والأيقونة). يسحب طرف (يجعلها تنفلت وتنحلّ) الكبّة الرّمزيّة للّغة في استعمال قياسيّ (من نمط <<كبّة>>) للسّنن// يكون المرجع إلى جانب المعلم (معلم الذّاكرة)، يكون التّلميح إلى جانب الحركة (حركة الضّياع): هذا ثابت، يجمّد حساباته ويسجّلها، وذلك ينساب، يهرب ويصف مدارات. (فويّو Vouilloux 1985 : 201).

من الواضح أنّه قد يحدث أنّ عنوانا لوحده، بدون اللّجوء إلى اسم علم، لا يفي بالوظيفة التّعيينيّة التي تناسبه وبالتّالي لا يقوم بعمليّة <<التّثبيت>> وتحديد العلاقة ما بين الطّرفين التي يتّبعها المرجع (والتي يصفها فويّو Vouilloux بجودة عالية في الاستشهاد الآتية): اطلبوا الهجائيّات من بائع كتب. سوف يجيبكم بسؤال آخر: هجائيّات من؟ (جينيت 1987 : 74). أضف إلى ذلك وجود عناوين متجانسة (نفس العنوان لعدّة أعمال)، ما يقف حائلا دون إدراك العلاقة المرجعيّة بين الطّرفين، هو وجود العناوين المترادفة (عدّة عناوين لنفس العمل): سبلين باريس Spleen de Paris/ قصائد قصيرة نثريّة Petits Poemes en prose، البرتين المختفية Albertine disparue/ الهاربة La Fugitive، السّماويّة La Celestine/ كاليكست وماليبي Calixte et Melibee.

هذا التّقارب بين العنوان واسم العلم يجب ألاّ يؤدّي بنا إلى الخطأ فيجعلنا نعتقد بأنّ الفرق الوحيد الموجود بينهما يكون صنف الشّيء المعيّن أو المرجع –عمل ما (سواء كان فنّيًا أم لا) في الحالة الأولى، شيء من العالم الطبيعيّ (شخص أو مكان) في الحالة الثّانية. سيكون ذلك إنكارا لما هو أساسيّ، وهو معرفة نمط العلاقة التي تكون لهما مع مرجعهما على التّوالي. في الواقع، مادام العنوان هو جزء من مرجعه، اسم العلم ليس جوهريًا للشّخص أو للمكان الذي يعيّنه: هذا الشّخص أو هذا المكان لا يتضمّنه، فهما على الأكثر يحوزانه أو يمتلكانه. يمكن القول إذن بأنّ أسماء العلم ليست أجزاء لكنّها ممتلكات. على نحو آخر، يتطلّب تغيير اسم العلم تغييرا في جوهر الشّخص أو المكان (حينئذ هذان الأخيران يستمرّان في الوجود، نفساهما). في المقابل، العنوان ليس ملكيّة لكنّه جزء من العمل. هذا ما يفسّر أنّه في وظيفته التّعيينيّة، يعمل كمجاز مرسل لِيراد بالجزء الكلّ (آدام Adams 1987)، ولاشكّ أنّه مجاز مرسل تخصيصيّ: لمّا يقال، مثلا، <<هل أنت تعرف قصيدة "الغسول La lessive" لباطاي Bataille>>، ما نعيّنه بعنوان القصيدة، ليس فقط النّصّ (<<القمر/ هو الصّابون/ أنابيب تصبّ بغزارة/ من صوتي>>)، لكن أيضا العنوان، بنفس الطّريقة، كما يقال <<شراع>> لـ<<مركب>>، فهو يضمّن شراعا. يجب إذن ألاّ نعجب لمّا تغيير في العنوان يتضمّن تغييرا في العمل ويلغي بذلك علاقة التّعيين التي أقامها العنوان الأصليّ.

الوظيفة اللّغويّة الواصفة Métalinguistique

يجب ألاّ تختلط الوظيفة التّعيينيّة بالوظيفة اللّغويّة الواصفة، التي يقول العنوان عن طريقها شيئا عن النّصّ. فريق م (1970:94) يمزج بين الوظيفتين في الدّراسة التي قام بها حول مدوّنة من عناوين الأفلام.

تستعمل عناوين الأفلام اللّغة لأهداف عدّة. فهي مثل عناوين الأعمال الأدبيّة والموسيقيّة، تعيّن عملا ويمكن تحليل العلاقات التي تقيمها مع مضامينها. مع ذلك، هذه الوظيفة المرجعيّة التي لا تظهر إلاّ عند قراءة الكتاب، وعند مشاهدة الفيلم، هو يتكفّل بها إلى حدّما ما بصفة مسبقة في التّبليغ الإشهاريّ.

ما دام <<الغسول>> يعيّن العمل الذي يسمّى هكذا لا يمسّ علاقة هذه الكلمة بـ<<القمر/ هو الصّابون/ أنابيب تنصبّ بغزارة/ من صوتي>>. هنا يوجد رابطان مختلفان: الأوّل مرجعيّ، بينما الثّاني دلاليّ(4).

إنّها طبعا هذه الوظيفة هي المسؤولة عن الانتقادات الموجّهة للعنوان والصّادرة عن عدد لابأس به من المبدعين ومن المنظّرين، الذين أبدوا دوما انزعاجهم أمام التّأثير الذي يمارسه العنوان عند تلقّي النّصّ بفعل خاصّيته التّثقيفيّة الموجّهة للقارئ. تؤيّد انتقادات أدورنو Adorno (1962:240)، مثلا، <<أن تعيّن العناوين، مثل الأسماء [أسماء العلم]، ولا تقول>>. يتمنّى أدورنو بحماس أن يتخلّى العنوان، دون أن يفقد صلته المرجعيّة مع العمل، عن صلته الدّلاليّة مع النّصّ. فالتّسميات المشيرة إلى هذه الوظيفة الثّانية، هي أيضا، كثيرة: تلفّظيّة enonciative (بوخبزة Bokobza 1984)، دلاليّة semantique (ميهايلة Mihaila 1985)، داردبل Dardel 1988)، لغويّة واصفة metalinguistique (كونتوروويكز Kantorowicz 1986) وتلخيصيّة abreviative (غولدنشتاين Goldenstein 1990). يسمّيها جانيت Genette وصفيّة Descriptive معتمدا

على كون هذه الوظيفة تصلح لوصف النّصّ بواسطة ملمح من ملامحه، الذي قد يكون متعلّقا بالمحتوى، أو موضوعاتيّا (كما هو الحال في فيدر Phedre)، أو بالشّكل، أو وزنيّ (الأناشيد Odes)، أو بالشكل والمحتوى، أو بمزيج منهما (مقالة في الطّبيعة البشريّة Traite de la nature humaine). كما يلاحظ، باستثناء الحالة الثّالة، تتعلّق العمليّة التي يتحدّث عنها جينيت Genette حتما بالمجاز المرسل، لأنّها جزئيّة وانتقائيّة (لم يختر المؤلّف من النّصّ سوى ملمحا من ملامحه، فلجأ إليه ليطلقه عليه)، ما ينتج عنه أنّ مصطلح <<وصفيّ>> صالح للدّلالة على الكلّ وليس على الجزء، ما يجعله غير مناسب. ناهيك عن العناوين التي يسمّيها جينيت Genette جمليّة مفارقة antiphrastiques أو ساخرة ironiques (مثل الخريف في بيكين L`Automne a Pekin لفيان Vian وجزء كبير من العناوين السّوريالية)، التي تبرز <<غيابا مستفزّا>> (جينيت Genette 1987 : 79): من الواضح أن ليس هناك وصف يستطيع أن يصف ما هو غائب.

من بين المصطلحات المشار إليها في الفقرة الأخيرة، مصطلح <<اللغة الواصفة metalinguistique>> وهو الذي يعبّر بأمانة عن روح هذه الوظيفة الثّانية. كانتوروويكز Kantorowicz يستعمل كثيرا هذا اللّفظ، لكنّه يمرّ بمحاذاة المسألة، مكتفيا بالتّأكيد على الوظيفة اللغوية الواصفة للعنوان باعتبار صفته كملفوظا في الدّرجة الثّانية (كانتوروويكز Kantorowicz 1986 : 57، ملاحظة 52). من الواضح، أنّه ليس هناك لغة واصفة بدون لغة سابقة (في الدّرجة الأولى أو <<أوّليّة>> حسب تعبير كوزريو Coseriu 1956 : 323) يمكن للغة ثانية أن تعالجها (في الحالة التي بين أيدينا، هذه اللّغة السّابقة هي النّصّ). سيكون اشتغال النّصّ بهذا المعنى مشابها للمقدّمة، التي نعتها غريماص بالذّات (1979 : 174) على أنّها <<تأمّل لغويّ واصف>> باعتبار طابعها <<كإنشاء ثانوي>>(5).

يخصّص جينيت Genette وهامون Hamon النّصيّة الواصفة metatextualite واللّغة الواصفة metalanguage ، على التّوالي، لميادين مختلفة. مفهوم جينيت للنّصيّة الواصفة هي في أغلبها مشروطة بالموقع الذي تشغله هذه الفئة في مجموع العلاقات النّصيّة المتعالية التي تشكّل برنامج بحث المؤلّف، مجموع يضمّ، بالإضافة إلى النّصيّة الواصفة، فئات التّناصّ intertextualite، جامع النّصّ architextualite، الإلحاق النّصيّ l`hypertextualite والموازي النّصّي paratextualite. لنتذكّر أنّه بالنّسبة لجينيت Genette (1982 : 10)، النّصيّة الواصفة تعني <<العلاقة، التي يقال عنها عادة "التّعليق"، التي توحّد نصّا بنصّ آخر يتحدّث عنه>>. بهذا التّحديد، لا يمكن للنّصيّة الواصفة أن تختلط بجامع النّصّ، التي تشير إلى علاقات ليست بين نصوص مختلفة، لكن بين النّصّ في تحديده الضّيّق والملفوظات المساعدة والمتمّمة التي ترافقه، بالرّغم من كون هذه العلاقة قد تكون تعليقا، وبالتّالي من طبيعة مماثلة للعلاقة بالنّصّ الواصف: جينيت نفسه يعترف منذ التّقديم في عتبات بأنّ حدّ المحيط النّصّي يكون دوما <<حاملا لتعليق من المؤلّف، أو يكون في جميع الظّروف كاسبا للشرعيّة عن طريق المؤلّف>>(6). غير خاضع لأيّة هيمنة اصطلاحيّة مسبقة ولا لبرامج طموحة، تمكّن هامون (1977) من الدّفاع صراحة عن فكرة أنّ اللّغة الواصفة هي أيضا حاضرة داخل العمل الأدبيّ نفسه:

يمكن إذن افتراض أنّ النّصّ الأدبيّ، ليس فقط مولّدا للتّوسّعات، الحواشي، الشّروح، التّفاسير، النّقود، المنتخبات، التّلخيصات، التّرتيبات الخارجيّة المتنوّعة، لكنّه يتضمّن نظامه التّوسّعي، لغته الواصفة الدّاخليّة. (هامون 1977: 265).

بالنّسبة لهامون Hamon، هذه اللغة الواصفة الدّاخليّة تتخلّل جميع فضاءات الكتاب وتتدرج حينئذ، بالإضافة إلى ذلك في بعض المكوّنات النّصيّة (بالمعنى الضّيّق للمصطلح) مثل الاستهلال والخاتمة، الموازيّات النّصيّة بصفة عامّة. نفس الشّيء يعتبر ميلهوت Mailhot (1985)، قبل عامين من شيوع مصطلح <<الموازي النّصّي>> المكرّس في عتبات (1987)، العناوين، الإهداءات، التّصديرات والمقدّمات كـ<<نصوص واصفة>>، دون التّخلّي عن <<محيط الكتابة >> الذي دعا إليه كومبانيون Compagnon (1979: 328)(7).

تمّ في العادة تصوّر اللغة الواصفة باعتبارها من نتاج تراتبيّة اللّغات، مادامت يمكن أن تعرّف على أنّها لغة هي حيث صعيد المحتوى يكون هو ذاته مشكّلا من لغة. في صياغة بارثس Barthes (1964)، ذات الأصل الهجلمسليفيّ hjelmslevienne والمستوحاة منه، كلّ نسق للدّلالة يتضمّن صعيدا للتّعبير (ت) وصعيدا للمحتوى (م)، تتطابق الدّلالة مع العلاقة (ع) بين الصّعيدين: ت ع م . هذا النّسق (ت ع م) يمكنه بدوره أن يصبح عنصر نسق ثان، الذي سوف يكون توسّعيّا. يكون لدينا حينئذ نسقان للدّلالة، الأوّل مندرج في الثّاني. هناك لغة واصفة إذا ما كانت نقطة اندراج النّسق الأوّل في الثّاني تقع على صعيد المحتوى.

إذا ما قبلنا هذه الصّيغة ذات الصّلة الدّلاليّة الموجودة بين العنوان والنّصّ، يمكن أن نؤكّد بأنّ النّصّ هو موضوع محتوى العنوان. لهذا السّبب بدا لنا بأنّه من الخطإ شرح العلاقة بين العنوان والنّصّ بالقيام بعمليّة تجريد للطّابع الثّانويّ للأوّل بالنّسبة للثّاني. لقد وقع عدد كبير من المتخصّصين في مثل هذا السّهو، من بينهم راي - دوبوف Rey-Debove (1979: 699)، الذي دافع عن التّشاكل السّيميائيّ بين العنوان والنّصّ، بمعنى أنّ كلاّ منهما يمكن أن يكون <<دنيويّا mondains>> (فيمثّلان عامّة خطابا حول دنيا البشر، مثل رواية زولا بطن باريس Le Ventre de Paris)، أو لغتين واصفتين (يمثّلان خطابا حول اللّغة، مثل النّحو الشّامل والمعقلن Grammaire generale et raisonne لبورت -رويّال Port-Royal). فمن الواضح أنّه في مصطلحات راي -دوبوف Rey-Debove، لم تكن هناك حاجة لأيّ من هذين التّشاكل، كما تدلّ على ذلك العناوين الدّنيويّة للنّصوص اللّغويّة الواصفة (بيار في لندن Pierre a Londre، مثلا، هو عنوان كتاب في تلقين الإنجليزية موجّه لمتعلّمين فرنسيّين) و، على العكس من ذلك، العناوين اللّغويّة الواصفة للنّصوص الدّنيويّة (قصيدة تحمل عنوان قصيدة). كما يلاحظ فإنّ، ما ينكره راي -دوبوف Rey-Debove هو خصوصيّة العنوان في ذاتها، لأنّه إذا لم تكن هناك لغة واصفة بدون لغة (باعتبار أنّ إحداهما هي الشّرط الضّروريّ للأخرى)، فليس هناك عنوان بدون نصّ. ليس العنوان ملفوظا مستقلاّ لأنّه، بدون موضوع، لا يمكنه أن يشتغل fonctionner، هذا ما يفسّر أنّ التّركيب <<بطن باريس>> يمكنه فقط أن يكون دنيويّا (يتحدّث عن أشياء من دنيا البشر، مهما كانت) باعتباره نصّا، وليس كعنوان أبدا. لنفس السّبب، إذا ما كان عنوان النحو

الشّامل والمقفل لغة واصفة، فليس لأنّه <<نحو>>، على خلاف <<بطن>>، كلمة يكون إطار المرجع بالنّسبة لها هو اللّغة، لكن فقط بسبب وضعيّته كعنوان.

من أجل استخدام مجاز فعّال جدّا استعمله بارثس Barthes –بخصوص عنوان بو Poe الحقيقة حول حالة السيد فالدومار La Verite sur le cas de M.Valdemar بالذّات (بارثس 1973 : 34) - اللّجوء للّغة الواصفة يعني مضاعفة اللغة في طبقتين حيث الأولى، بصفة ما، <<تحضن>> الثّانية. في المجال التّشكيليّ، إنّها الاستخلاصات المفيدة تماما بالنسبة للمجاز البارثي والّتي توصّل لها بوريت Baurit (1977 : 26)، الذي يعالج الفرق الأساسيّ بين اللّوحة والخطاب مستفيدا من دروس علم الاشتقاق:

الوصف -Meta، يعني اشتقاقيّا <<ما يحيط بالشيء>>، لكن أيضا <<ما يتجاوزه>>. فالخطاب حول الرّسم أو بالأحرى حول اللّوحة (...) هو حصيلة علاقة تضمّن، أو تجاوز، نستطيع أن نجازف بوصفها ببعض الاستعارات الفضائيّة: يدور الخطاب دوما حول موضوعه دون أن يلجه حقّا، يقع ماوراءه أوما بعده، لكن لن يكون أبدا في قامته، في مستواه، في فضاء آخر هو فضاء اللّغة -الموضوع، المتجلّي في اللّغة التّشكيليّة. كتب كلود لوبنسزتيجن Lebensztejn عن المسافة بين اللّوحة والتّعليق عليها قائلا: <<قلّص من المسافة أكثر مما تقلّص من هامتها tient moins a leur distance qu`a leur heterotopie>>. هناك إذن تباعد، أو أيضا انفكاك بين هاتين اللّغتين اللّتان أدرجتا في نسق وصف اللّوحة، بفعل أنّهما يرتكزان على مكانين مختلفين.

إنّ العنوان باعتباره ملفوظا لغويّا واصفا، يحيط بالنّصّ ويتجاوزه، يتلبّسه دون أن يخترقه، لأنّه يظلّ دوما على مستوى آخر. وهو كذلك بسبب المكان الذي يشغله، والذي يفصله عيانا عن النّصّ، دون إمكان اختلاطه به. يحسن درّيدا Derrida (1979 : 225) التّعبير عن هذه الحقيقة لمّا يؤكّد، حقّا وباعتزاز إلى حدّ ما، بأنّه ليست هناك نظريّة للعنوان يمكنها أن تتخلّى عن طوبولوجيا topologie: ليس هناك عنوان بدون تحديد صارم لسنن طوبولوجي. <<ليس للعنوان مكان من غير حاشية>> النّصّ: فإذا ما قبل أن يندرج في موضوعه، إذا ما أصبح جزءا منه، مثل أيّ عنصر من عناصره الدّاخليّة، من قطعه المكوّنة، يتوقّف عن لعب الدّور المخصّص له ولن تكون له القيمة التي منحها له القانون والحقّ والسّنن. يعود درّيدا إلى المسألة في بعض الصّفحات الموالية (234) لمّا، بخصوص جنون اليوم La Folie du jour لبلانشوت Blanchot، يعارض ما بين المقياس الطّوبولوجي (الضّروريّ والكافي للاعتراف للملفوظ بقيمة عنوان) وكلّ مقياس آخر للقراءة، سواء كان لغويّا أو دلاليّا (داخليّا، في النهاية)، مجرّد من القدرة على إضفاء أو إنكار هذه القيمة. هكذا يبدو درّيدا Derrida مؤكّدا على كون العنوان قبل كلّ شيء هو تدوين، علامة، أثر عياني وقابل للقراءة، يمكن التّعرّف عليه في مكان محدّد، مهما كانت علاقته الخصوصيّة مع النّصّ، أي بمعزل عن كون هذه العلاقة هي علاقة مشابهة أو –كما يتمنّاها بروطون Breton، مثلا - علاقة مخاتلة.

بخصوص هذه النّقطة الأخيرة، يجدر بيان أنّ اللّغة الواصفة ليست على الدّوام آلة في خدمة الوضوح. تلك هي فيما يبدو في الواقع وجهة نظر هامون Hamon (1977)، هنا هو شديد الإخلاص لدرس جاكوبسون Jakobson الذي حسبه الوظيفة اللغوية الواصفة للغة تكون قبل كلّ شيء وظيفة تفسيريّة، تهدف إلى

استبدال الدّلائل الباعثة على الشّكّ بدلائل واضحة. هذا الموقف ينتج عنه بالضّرورة اعتبار العنوان كنوع من الشّرح للنّصّ، فكرة لا نستطيع أن نشاطره فيها، لأنّ القول بأنّ كلّ شرح من طبيعة لغويّة واصفة، لا يتطلّب عكسه. في البحث اللّسانيّ، من المتعارف عليه اعتبار الشّرح بمثابة نشاط لغويّ واصف يعيد صياغة المعنى الصّادر عن المتحدّثين بهدف ضمان سلامة المحتوى الذي يريدون تبليغه. إنّ شرحا (ص) لصياغة أصلية (س) لا يمكنه أبدا أن يعادل تماما (س) –بعبارة أخرى لم يتصوّر بغرض توضيح أو تدعيم دلالة (س) التي يحكم عليها الباثّ غامضة أو قليلة الوضوح – فالعلاقة الشّرحيّة تستند دوما على إقامة تماثل من طرف المتحدّث بين الدّلاليّات على التّوالي لـ(س) ولـ(ص) (فوش Fuchs 1982 : 104):

<<سعداء هم المحزونون، لأنّهم سوف يواسون>>، هذا يعني <<*انظروا في هذا الجمع من الفقراء، المحزونين، سوف تكون لهم الحضوة في ملك الله*>>

العبارة بالخطّ المائل تمثّل شرحا لعبارة <<سعداء هم المحزونون، لأنّهم سوف يواسون>>، لأنّها تعيد صياغة هذه الأخيرة وفقا لقاعدة تماثل محتمل بين هذه والأخرى. مادام الشّرح (ص) هو تنمية للعنصر المشروح (س) يكون من الخطإ استخلاص أنّه وبالضّرورة تكون عبارة (ص) أطول من عبارة (س)، لأنّه ليس هناك ما يمنع في المستوى النّظريّ اعتبار عبارات أكثر قصرا من العبارات الأصلية شرحا، بشرط أن يراعى المقياس الكيفي –الذي حسبه ما يهمّ ليس فكرة النّموّ لكن فكرة التّوضيح – إنّه لهذا وبصفة غير صحصية هناك توجّه في التّفكير يرى بأنّ الشّرح أطول من موضوعه. هذا الحكم المسبق، مثلا، يوضّح لماذا كابيلّو Cappello (1992 : 17) وجد نفسه مجبورا على وصف العنوان بأنّه شرح قصير:

مطابقة لكلّ ما قيل بخصوص القصر تظهر إنارة العنوان، بالمعنى الذي يمكن اعتبار هذا الأخير كنوع من الشّرح القصير للنّصّ. إنّه أيضا ما يعلّل العنوان –الاسم الذي يحمل على اعتباره شرحا، أو بالأحرى كإحدى الشّروح القصيرة الممكنة للنّصّ. مادام بعض المؤلّفين اقترحوا على النّاشر قائمة محتملة من العناوين، وأنّ عنوان نفس العمل يتغيّر من طبعة إلى أخرى، هذا يدلّ بأنّ شرحا قصيرا مثل هذا ما هو سوى أحد الشّروح الممكنة التي اختارها المؤلّف (أو أحد غيره ناب عنه) من أجل توجيه القارئ في متاهة النّصّ الأدبيّ.

وجهة نظر مثل هذه تستوجب بصفة ما بأن لا تكون العلاقة الدّلاليّة بين العنوان والنّصّ سوى مثل لما سمّاه غريماص Greimas وكورتاس Courtes (1979) قابليّة الخطاب للتّمطيط، إحدى الخصائص المميّزة للّغات الطّبيعيّة التي عن طريقها <<وحدات خطابيّة ذات أبعاد مختلفة يمكن أن يعترف بها دلاليّا باعتبارها متعادلة>> (116)(8)؛ حسب غريماص Greimas وكورتاس Courtes المثل الأكثر وضوحا لهذه الخصيصة هي العلاقة بين التّعريف (توسّع) والتّسمية (تكثيف) اللّغويّتين، علاقة يطبّقها هوك Hoek (1981 : 168) على الصّلة الدّلاليّة بين العنوان والنّصّ(9).

والحال هذه فإنّه في ميدان الأدب الخياليّ (وعلى سبيل التّوسّع، في مجال الفنّ عامّة)، اعتبار النّصّ كتوسّع للعنوان ليس صحيحا إلاّ في الحالة التي يقدّم فيها النّصّ على أنّه لغز بحيث يسبق العنوان الإجابة (عدد من تشكيلات كتب الحيوان تتّبع هذا المنطق). من الواضح جدّا، وضع هذا المفهوم في مصاف وضعية فنويّة هو

بالضّرورة تعميميّ وجزئيّ(10). لنلاحظ أخيرا، لكي نحمل هذا الجزء المخصّص للوظيفة اللغويّة الوصفيّة، بأنّ الفكرة التي انطلق منها كابيلّو هي شديدة الإنسجام مع المجاز النهائيّ (المسجّل بحروف مغايرة في المستلّ المذكور أعلاه). هذا المجاز يماثل، من ناحية، بين النّصّ ومتاهة (فضاء قاتم، مشكّل من دلائل مبهمة تتوّه عن السبيل القويم)، ومن ناحية أخرى، بين العنوان و دليل موجّه، أي علامة واضحة وشفّافة أو بالأحرى تلقي الضّوء على النّصّ، تقريبا مثل النّاج اللّمّاع، والذي حسب تأويل للمقطع الأسطوريّ الأقلّ شيوعا من مقطع كبّة الخيط، والذي يكون أريان Ariane قد منحه لتيزي Thesee ليمكّنه من العثور على طريقه في متاهة كريت Crete.

وظيفة الإغراء Fonction séductrice

في مقاله حول الكتابة الخطّيّة، يتحدّث هنري فورنيي Henri Fournier (1825 : 126) عن صعوبة تسمية نصّ ذي المهمّة المزدوجة التي على كلّ عنوان أن يؤدّيها:

إنّ عنوان مؤلّف ما هو الذي (...) يمنح القارئ الفكرة الأولى عنه، وهذا الإحساس الأوّليّ، على قدر ما يكون جذابا، أو مبهرا للذّهن وللعينين، يترك فيه أثرا لمدّة قد تطول أو تقصر، على المؤلّف والطّابع أن يوحّدا الجهود لإحداث توقّع مقبول. أحدهما عن طريق التّبسيط والاختزال عند وضعه للعنوان، عليه أن يعطي فكرة تامّة قدر الإمكان عن محتوى المؤلّف، مصرّا مع ذلك على إثارة فضول القارئ؛ الآخر عن طريق التّأليف المدهش للحروف والمهارة في وضع الأسطر، عليه أن يوفّر لعين العارف نظرة منتظمة بلا رتابة، ومتنوّعة بصفة سائغة (...). يكتسب شكل هذه الصّفحة دوما أهمّيّة كبرى عن طريق التّأثير الذي يمارسه على جمهور القرّاء النّزقين هذا، والذين لا يبتاعون الكتب إلاّ لكي يشبعوا نهم أعينهم، أو الّذين يخضعون لإغراء العنوان.

على العنوان ألاّ يعطي فقط محتوى النّصّ <<فكرة مكتملة قدر الإمكان>> -إحدى مظاهر الوظيفة اللغويّة الواصفة (بدون شكّ هي الأكثر قدما وتقنينا، لكن لعلّها أيضا الأكثر تكلفة بالنّسبة للمؤلّف) - بل عليه أيضا <<إثارة فضول القارئ>>. إنّها أداة الامتناع <<مع ذلك>> التي تسبق التنبيه إلى هذا الدّور الأخير للعنوان التي تشير إلى الصّعوبة، دور أطلق عليه جينيت Genette (1987) عنوانا صائبا <<وظيفة إغرائيّة>> (أضف إلى ذلك أنّ نفس المصطلح <<إغراء>> الذي استعمله فورنيي Fournier)(11). يمثّل العنوان نقطة تلاق، نظرا لوضعه <<الطّرفي>> أو <<الحدودي>>، ممّا يجعله يلفت النّظر في نفس الوقت إلى ماهو داخل (النّصّ)، في وظيفته اللّغويّة الواصفة، وإلى الخارج (الجمهور عامّة)، في وظيفته الإغرائيّة. هذه المكانة المزدوجة للعنوان تحتمل تقديرين أو حكمين صادرين من هذين <<النّظرتين>>، وهو الموضوع الذي لاحظه جافيي غارسيا صانشيز Javier Garcia Sanchez (1989 : 10) في صفحات يوميّة البايز El Pais بأنّه:

ليس هناك شخص، من غير الكتّاب أنفسهم، يستطيع أن يتخيّل درجة أهمّيّة العثور على عنوان مناسب، الذي لن يكون بالضّرور الأكثر نجاحا. إنّي ألمح هنا وهناك، بقدر من التّعاطف، أثر هذا الانشغال الخفيّ للرّوائيّين من أجل أن يكتشفوا العنوان الذي يكون، صريحا وموجزا، يلج كشعاع الأعين وفي الوعي. في ذهن الجمهور،

تاريخ الأدب العظيم هو أيضا شكّلته العناوين العظيمة والتي كانت بصفة عامّة وقفا على الأعمال العظيمة. لكي نكتفي بمثال واحد، يبيّن في البحث عن الزّمن الضّائع A la recherche du temps perdu بروعة هذه الجاذبيّة المسبقة للقارئ نحو تاريخ لم يشرع بعد في قراءته.

يكون العنوان إذن <<مناسبا>> لمّا يجذب القارئ المحتمل، و<<ينجح>> لمّا يناسب النّصّ. لابدّ حينئذ من الاعتراف بأنّ، عكس ما يقترح غارسيا صانشيز Garcia Sanchez، عنوان بروست لا <<يأسر>> كلّ النّاس: ما يسحر البعض لا يعجب الآخرين أو يجعلهم غير مبالين؛ كما لاحظ بدقّة جينيت Genette، فالوظيفة الإغرائيّة للعنوان قد تبدو إيجابيّة (مثلما الحال في في البحث عن الزّمن الضّائع بالنّسبة لغارسيا صانشيز)، سلبيّة أو لاشيء حسب المتلقّين، الذين لا يخضعون بالضّرورة للفكرة التي يكوّنها عنهم المرسل. إنّ الأمر إذن يتعلّق بوظيفة حيث تتميّز بالتّأكيد بالذّاتيّة وحيث فعاليّتها تصبح بالأحرى باعثة على الشّكّ: إنّ النّاشرين، المنشغلين بالفوائد التي يمكن أن تستدرّ من العناوين، هم واعون تماما عدم إمكان التّنبّؤ بنجاح كتاب أو قياس هذا النّجاح حسب درجة تأثير العنوان.

جينيت يربط الوظيفة الإغرائيّة بالتّأثيرات الإيحائيّة للعنوان الّتي، أحيانا بغتة، تتضاف للتّأثيرات الدّلاليّة الأوّليّة المشتقّة من الوظيفة <<الوصفيّة>> (<<اللغويّة الواصفة>> بالنّسبة لنا). هذه التّأثيرات الإيحائيّة متعلّقة بالطّريقة التي يمارس بها العنوان هذه الوظيفة. مثلا، عنوان مثل انحراف إلى بيروت Deroute a Beyrouth يعلن، من ناحية، عن مغامرة تقع في عاصمة غرائبيّة وخطيرة –من وجهة نظر وظيفته <<الوصفية>>، إنّه إذن عنوان موضوعاتيّ(إذا ما اتّبعنا صنافة جينيت، التي حسبها تكون العناوين موضوعاتيّة صوتيّة أو مشتركة) – لكن، من ناحية أخرى، الطّريقة التي تمّ بها إعلان المغامرة (المؤسّسة على جناس صوتيّ واضح)، تضيف قيمة مضافة لـ<<وصف>>: بالنّسبة لقارئ غير متعوّد على جان بريس، ستكون هذه القيمة <<المؤلّف يتلاعب بعنوانه>>، بينما بالنّسبة لقارئ أكثر كفاءة، <<المؤلّف لا يمكن أن يكون سوى جان بريس، أو شخصا يقلّد طريقته في العنونة>>(12). لأنّ جميع طرق العنونة لا تتوقّف على المؤلّف، ثمّ إنّه: من بين ذلك (لايدّعي جينيت بأنّه أحاط بكلّ شيء)، هناك طرق بالأحرى ذات طبيعة تاريخيّة (المكانة التّقليديّة للعناوين الشّموليّة) لون القرن الثّامن عشر المحبّذ لعناوين طويلة سرديّة مثل عناوين ديفو Defoe، ميراث من القرن التاسع عشر للأسماء المكتملة للأبطال)، أو من طبيعة توليديّة (اسم وحيد للبطل المأساوي، اسم طبع في الملهاة(13)، لاحقة ad– أو id– في عناوين الملاحم القديمة).

في مستوى أكثر عموما، من المقبول عند عدد من المؤلّفين أنّ جزءا هامّا من الأساليب المستعملة في العنونة تهدف إلى ربح رضا الجمهور وتستثير فضوله. يشير كانتوروويكز Kantorowicz (1986: 78 - 101)، مثلا، إلى أنّه من بين هذه الأساليب استخدام:

(1) أماكن مشتركة، مفاهيم مقبولة وقيم معترف بها من طرف الرّأي العامّ والتي تستدعي شعورا بالانتماء، بالتّلاحم، وبالتّماهي وتتلقّى بهذا موافقة المرسل إليه، موافقة ينقلها هذا الأخير للكتاب:

هـذه هـي، مثلا، صـفة عـنوان زولا Zola إنّـي أتّهـم J`accuse، الـذي يدعـو إلى قـيمة (العدالـة) ويستوجب انحيازا يعارض خير العدالة بالشّرّ الذي تسبّب فيه المتّهمون؛

(2) صور بيانيّة مثل مثل الإلماع (الـذي عـن طـريقه <<تستثار فكـرة ويترك تطويـرها للمستمع>>) والتّلميح (حيث يستدعى شيء ما دون الإحالة عليه مباشرة(14)، مثلا، <<حدث من الماضي، سلوك أو واقعة ثقافيّة>>)؛

(3) الحجاج <<عن طريق الضّحك أو البسمة>> بمساعدة الصّور من مثل التّجنيس والمبالغة السّاخرة؛ كانتوروويكـز Kantorowicz يذكـر كأمـثلة للتجنـيس ستّة عـناوين مـن بـروس Bruce(15)، وكأمثلة من المبالغة السّاخرة عناوين رابلي Rabelais الحياة الغالية لغارغانتوا العظيم... vie inestimable du grand Gargantua، الأحداث والمآثر المرعبة والشّنيعة لبانتاغرويل الشّهير جدّا Horribles et epouvantables faits et prouesses du tres renomme Pantagruel؛

(4) فنّيّات تهـدف إلى فـرض <<حـضور>> العـنوان، أي جعلـه واضـحا، مـثل (ا) التّـناقض الظّاهـريّ paradoxe ، الإرداف الخلفـيّ l`oxymoron والمقابلـة anthithese (الـوحش البـشريّ)، (ب) التّقديم والتّأخير hyperbate (<<آرثير رامبو: حياته المشتعلة Arthur Rimbeau: sa vie brulee>>، المنشور في هي Elle) و (ج) الإرداف parataxe (انطباع شمس شارقة Impression soleil levant)، الاستفهام (هل تحبون براهمس؟ Aimez-vous Brahms?)، صيغة الأمر (Steal This Book)، النّعت بالإشارة adjectif demonstratif (هـذا الرّجل خطير Cet homme est dangereux) والتّعيين بالإسم l`article determine (البلّوط والبوص le chene et le roseau).

يتساءل فاينـريش Weinrich (1971) بالـذّات عـن الإغـراء المـمارس عـن طـريق اسـتعمال اسـم الإشـارة مستندا في طرحه إلى أسباب أكثر موضوعيّة من تلك التي قدّمها كانتوروويكس Kantorowics (حجّة <<الحـضور>> غـير دقـيقة وشـديدة البـذاهة). يحـاول فينـريش Weinrich أن يفسّر الاشـتغال النّـصّي لأداة التّعريف في اللغة الفرنسيّة انطلاقا من الفكرة العامّة لخطّيّة النّصّ، وبالتّالي إمكانيّة أن يوجّه القارئ انتباهه سواء إلى الأمام، نحو الخبر اللاّحق (توقّعا cataphoriquement)، أو إلى الوراء، نحو الخبر السّابق أو المسبق (تكرارا anaphoriquement). التّنكير والتّعريف هي أمثلة متوالية على هذين التّوجّهين للنّصّ.

لهذا فإنّ التّنكير يتطلّب من طرف المتلقّي انتباها دائما، لأنّه <<لفهم المقطوعة الموالية فهما سليما، لا يمكنه الرّجوع إلى الخبر المحصّل عليه من النّصّ السّابق، لكن عليه أن ينتظر تحديدا جديدا سيأتي>> (ص 227). بينما التّعريف في المقابل،

يدلّ على أنّ المستمع/القارئ عليه أن يظلّ منتبها للعناصر السّابقة في النّصّ لفهم هذا الأخير، وأنّ الخبر الذي قدّم من قبل عن طريق العلامة مازال مقبولا. يمكنه حينئذ أن يهمل العلامة المعنية ويركّز انتباهه على مقطوعات أخرى في النّصّ. (فينريش Weinrich 1971 : 226 -227).

استنتاجان يجعلان فينريش Weinrich يتساءل عن التّفضيل المسجّل لأداة التّعريف في سياق مجرّد من خبر مسبق (مادام العنوان هو عنصر القراءة الأوّل):

(ا) في اللغة الفرنسية، الأسماء الموصوفة المثبتة في العناوين والتّصديرات في جميع أنماط النّصوص (بمعزل إذن عن جنسها) تكون عامّة مسبوقة بأداة التّعريف (لاستنتاج ذلك يكفي الرّجوع إلى عمل مرجعيّ في الأدب أو إلقاء نظرة على واجهة مكتبة):

(ب) للعناوين القدرة على إغرائنا وجعلنا نشتري ونقرأ الكتب.

يجيب فينريش بأنّ العناوين المحتوية على أداة للتّعريف تحيل على خبر مسبق نجهله فيستدعي عند القارئ <<قلقا سيميولوجيّا>> بحيث لا يمكن التّخلّص منه سوى بشراء الكتاب وقراءته، إننا نفترض بأنّنا سوف نجد في النّصّ هذا الخبر الذي ينقصنا لفهم العنوان فهما جيّدا.

رغم أصالة هذا العنوان (وكذلك تفوّقه على تفسير كانتوروويكس Kantorowics)، يبدو غير كاف وإشكاليّا، لأنّ <<القلق السّيميولوجيّ>> ليس وقفا أبدا على عناوين معرّفة. فممّا يبعث الحيرة أيّ من بين هذه العبارات هو كذلك (لنكتف هنا بثلاثة أمثلة)، الصّخرة التي تنمو أم صخرة تنمو؟ المرأة الخائنة أم امرأة خائنة؟ المارق؟ أو مارق؟ فالعناوين المعرّفة تحيل بدورها إلى خبر غير موجود (أكان هذا الأخير سابقا أم لاحقا فالأمر غير مهمّ).

مهما كان الشّكل، فإنّ عنوانا ما هو دوما معلّق، يحدث تشويقا أو انتظارا (درّيدا Derrida 1970 : 221). العنوان بهذا المعنى تحفّظ ملغز، إضمار، إيجاز ينتظر تحديدا له، توضيحا (درّيدا: 1979 : 231 و234)، ويمكن القول بامتياز، انطلاقا من تحريض عنوان درّيدا (عنوان في حاجة إلى توضيح)، بأنّ كلّ عنوان <<يستلزم توضيحا>>. استعارة بارثس Barthes الغذائيّة (1973)، التي حسبها الوظيفة الإغرائيّة للعنوان هي وظيفة إثارة الشّهيّة (يفتح العنوان الشّهيّة)، ذات دلالة بليغة. بارثس Barthes ، في تحليله لسارّازين Sarrasine (1970 : 24) كان قد أشار بأنّ <<العنوان يستثير سؤالا : سارّازين، ماذا تعني؟ اسم مشترك؟ اسم علم؟ شيء؟ رجل؟ امرأة؟>>. يقترح هذا العنوان أول عبارة لمتوالية لن تغلق إلاّ فيما بعد، في مركز القصّة (في الوحدة التي تبدأ بـ<<أرنست -جان سارازين Ernest-Jean Sarrasine كان هو الولد الوحيد لمدّع عامّ لفرانش - كومتي Franche-Comte>>)؛ الأمر يتعلّق إذن بالوحدة الأولى للسّنن الهيرمينوطيقي، المؤلّف من طرف

مجموع الوحدات التي تقوم بوظيفة بيان، بطرق مختلفة، سؤال، جوابه والأحداث المتنوّعة التي بإمكانها أن تهيّئ السّؤال أو تؤخّر الجواب؛ أو أيضا: صياغة لغز والوصول إلى فكّه. (بارثس Barthes 1970 : 24).

تبنين العبارات الهيرمينوطيقيّة اللّغز حسب التّوقّع والرّغبة في حلّه. بالنّسبة لبارثس Barthes، ديناميّة النّصّ (التي تتّجه نحو الأمام) هي ديناميّة ثابتة: من أجل الحفاظ على اللّغز في الفراغ الأوّليّ السّابق على فكّه، يقتضي السّنن الهيرمينوطيقيّ تأجيلات في مجرى الخطاب: بين السّؤال والجواب، هناك إذن فضاء ممهّلا كاملا(17).

باختصار، عن طريق شرطه باعتباره إضمارا سياقيّا (هوك Hoek 1981 : 58) يثير العنوان الإغراء، بنفسه ورغما عنه. فإذا ما حدث أن قام المؤلّف إضافة إلى ذلك باستكماله عن طريق فتّيات مقاربة أكثر سهولة، من المحتمل جدّا، أنّه عوض أن يخدم نصّه، يثقله أكثر وينتهي بتجاوزه. من الأحسن، كما يقول جون بارث John Barth (ix : 1984) بصفة منطقيّة جدّا، أن يكون نصّ ما أكثر إغراء (<<engaging>>من عنوانه (The Adventures of Huckleberry Finn)، خير من عنوان أكثر إغراء من نصّه (Steal This Book, d`Abbie Hoffman)(18).

◆◆◆

من نافلة القول أنّ كلاّ من الوظيفة التّعيينيّة واللّغويّة الواصفة والإغرائيّة تستلزم وجود النّصّ وتكفي لشرح العنوان ومراعاة خصوصيّته. لكي ينظر إلى عنوان على أنّه كذلك ليست هناك أيّة خصيصة أو ضرورة ذات طبيعة شكلية مشترطة: فابتداء من مجموعة جمل (لنتذكّر أغلب عناوين أشعار ج.ف.فواكس J.V.Foix) إلى حرف واحد (H، إحدى إشراقات Illuminations رامبو Rimbeaux)، مرورا بمجرّد علامة تنقيط (؟ تعيّن القصيدة XI من الكتاب الثّالث من التّأمّلات Contemplations لهيغو Hugo، وكذلك ...؟ ثلاث قصائد لجوان رامون جيمينيز Juan Ramon Jimenez(19))، كلّها بإمكانها أن ترقى إلى مرتبة عنوان. كما يلاحظ باريزي Parisi وآل. Al (1979 : 97)، <<ما يميّز العنوان ليس كونه خصيصة، لكن علاقة>>، لهذا فإنّ عنوانا ما <<لا يعترف به في حدّ ذاته، لكن لأنّه عنوان شيء ما>>.

غير أنّه لا تنقص التّأكيدات التي تذهب في الاتّجاه المعاكس. يذهب لوسارف Lecerf (1974 : 145)، مثلا، يدّعي بـ<<أنّه وقبل كلّ شيء أسلوب، غنيّ بالمقابلات وعنيف في صوره، ما يميّز هذا النّوع من العبارات التي هي العناوين>>. بالنّظر إلى أنّ هذا الأسلوب ليس هو العلامة المميّزة للعنوان (لأنّ النّصوص هي أيضا تتضمّن مقابلات وصورا عنيفة. يصبح من المعقول استخلاص أنّ النّصوص تتضمّن عددا لا بأس به من العبارات الباحثة عن مؤلّف يلتقطها ويصنع منها عناوين ذات تركيب جديد. إنّه هكذا على غرار فرنسواز ساغان Francoise Sagan، التي استمدّت عنوان إحدى رواياتها (<<أهلا يا حزن>>) من البيت الثّاني من قصيدة لإلوار Eluar مشوّهة إلى حدّ ما A peine defiguree، يقوم لوسازف بالبحث، في نفس هذه القصيدة، عن سلسلة من الكلمات التي تمتلك <<أسلوب عناوين الكتب>>. هاهو نصّ إلوار Eluar:

وداعا يا حزن

أهلا ياحزن

مدوّن أنت في سطور الأعماق

مدوّن أنت في العيون التي أعشقها

أنت لست البؤس دوما

مع أنّ الشّفاه الأشدّ فقرا تشكوك

ببسمة

أهلا يا حزن

حبّ الأجساد الأليفة

قوّة الحبّ

حيث تنبثق الرّقّة

كوحش بدون جسد

رأس مخفقة

حزن وجه جميل

على الدّوام، حسب لوسيرف، زيادة على <<أهلا ياحزن>>، في هذه القصيدة يمكننا اختيار ملفوظات أخرى يمكنها أن تستعمل كعناوين لكتب، مثل <<وداعا ياحزن>>، <<سطور الأعماق>>، <<العيون التي أعشقها>>، <<البؤس>>، <<الشّفاه الأشدّ فقرا>>، <<الأشدّ فقرا تشكوك>>، <<ببسمة>>، <<حبّ الأجساد الأليفة>>، <<قوّة الحبّ>>، <<وحش بدون جسد>>، <<رأس مخفقة>>، وأيضا – ولكن في مستوى <<أقلّ صفاء>>، فيما يعتقد لوسيرف Lecerf - <<أهلا ياحزن>>، <<حزن أنت>>، <<بسمة أهلا بك>> و<<أجساد أليفة القوّة>>. بقطع النّظر عن أنّه في عدد كبير من هذه العبارات، لانرى بوضوح الأسلوب الذي يشعرنا بأنّه يميّز العناوين (ليست هناك مقابلات، وليست هناك صور عنيفة، لعلّه فيما عدا مثلا، في <<البؤس>>)، وما يبدو أنّ لوسارف يتجاهله، أنّ عنوانا ما لا يمكنه أن يوجد احتمالا: عنوان ما لا يمكن أن يوجد سوى فعليّا، لأنّه لابدّ من أن يندغم في العمل، أن يقول شيئا عن موضوعه (بفضل وظائفه التّعيينيّة واللّغويّة الواصفة)، وأن يوجّهنا أيضا وبأقصى ما يمكن من فعاليّة نحو قراءته (بفضل وظيفته الإغرائيّة).

إذا كان من العبث الاعتقاد بأنّ العنوان يمكن التّعرّف عليه عن طريق أسلوبه، لا يمكننا، بالأحرى، أن ننسب إليه خصائص النّصّ (إذا أخذناها بمعناها الجاري، وليس بالمعنى الحصريّ الذي يمنحه إيّاها جينيت، الذي يتحدّد عنده النّصّ بـ<<ما هو ليس نصّا موازيا>>). إنّها حالة نورد Nord (1989: 519 -522)، الذي دافع في القسم الأوّل من مقاله <<عنوان النّصّ Der Titel als Text>> بخصوص العنوان عن <<مقاييس النصيّة>> السّبعة التي تحدّد النّصّ حسب بوغراند Beaugrande ودرسلر Dressler (1981)(20). بضربة واحدة، يحوّل

نورد Nord العنوان إلى حدث تواصليّ، عوض أن يخصّص له الدّور الأكثر تواضعا لوحدة في خدمة هذا <<الحدث>>. غونيي Gueunier (1991)، بصفة ليست أقلّ عبثا، يقارن بجلاء بين العنوان بالأمثولة paremie، بعد أن طرح فكرة أنّ عناوين الأعمال الأدبيّة تشكّل لوحدها <<جنسا سرديّا>> (ص262):

مثله في ذلك مثل الأمثولة في الواقع، لكي يلفت العنوان الانتباه، عليه، في فضاء ملفوظ وحيد ومتلاحم، أن يستثير ويلبّي توقّعا، أن يدرج وأن يستخلص، أن يطرح سؤالا وأن يوفّر جوابا. (268).

بكلّ وضوح، يستدعي غونيي Gueunier هنا الوظيفة الإغرائيّة للعنوان (<<لفت الانتباه>>)، لكن من أجل أن يجعل العنوان متّفقا مع الأمثولة (التي هي بالمقابل جنس، وبالتّالي تمتلك هويّة شكليّة: يلاحظ غونيي Gueunier نفسه بأنّ هذا <<الشّكل البسيط>> يتميّز بـ<<ثبات نسبيّ للشّكل اللّغويّ والبلاغيّ>> الذي يجعلها مكتفية بذاتها ومنغلقة)، يسند للعنوان، ما لا يمكنه أبدا أن يسند بحقّ إلاّ للنّصّ: القدرة على تلبية التّوقّع (التي من المؤكّد أنّ العنوان أثارها)، الاستخلاص (ما يدرجه العنوان)، الإجابة (على السّؤال المطروح عن طريق العنوان).

هذا المفهوم الجنسيّ للعنوان يبدو أخيرا أنّه يشارك فيه لوفان Levin (1977) في مقاله <<العنوان كجنس أدبيّ The title as a literary genre>>، وكذلك موسوعة الأشكال البسيطة Simples formes. موسوعة الأشكال البسيطة للنّصوص النّمطيّة في الحكمة والأدب An encyclopaedia of simple text-types in lore and literature (كوخ Koch 1994)، حيث للعنوان مكانته إلى جانب وحدات كالمثل proverbe، المثل سائر adage، الموشّح ballade، الخرافة fable، الهيكو haiku، الأسطورة mythe، الأغنية chanson أو السّونيتة. مع ذلك، فإنّ هذه الفكرة التي تمّ الانطلاق منها كان عليها أن تخضع لانتقاد المؤلّفين. هكذا، فإنّه في الفقرة الأخيرة من نصّه، لوفان Levin يستخلص بوضوح:

عليّ أخيرا أن أعترف بأنّ العنوان الذي أعطيته لهذا المقال جعل شيئا من التّعسّف يطبع الأطروحة التي حاولت أن أدافع عنها. في الواقع، لا يمكننا أن نقول بأنّ العنوان يكون جنسا أدبيّا، لأنّه إذا ما عزل عن العمل الذي يقدّمه، يصبح مكمّلا مجرّدا من المعنى؛ لكن هناك بالأحرى تنوّع كبير في العناوين وطرق مختلفة لإبداعها، للعثور عليها ولاستعمالها. في جميع الحالات، يصلح العنوان لإقامة تواصل بين النّصّ وجمهوره، في علاقة متغيّرة في الاتّجاهين، بحيث فإنّ الدّراسة الجنسيّة للعنوان يمكنها أن تشتغل بتصنيف عدد غير محدّد من التّاليفات. كلّ جنس له أعراف العنونة الخاصّة به.

أمّا بخصوص الأشكال البسيطة، فإنّ الموقف الذي يستنبط من جدول الموادّ يتوضّح ما أن نعرف نصّ التّعريف المناسب، حيث يمكننا أن نقرأ بأنّ: <<على خلاف الأشكال البسيطة الأخرى، الـ ع. العنوان ليس وحدة مستقلّة لكنّها شكل بسيط في علاقة بشكل آخر، هو بصفة عامّة أكثر تعقيدا.>>

خاتمة

من بين الوظائف الثّلاث للعنوان، الأكثر لفتا للانتباه من وجهة النظر السّيميائيّة هي الوظيفة اللّغويّة الواصفة، وذلك لثلاثة أسباب:

1. إنّها الوظيفة التي تتطابق مع فكرة أنّ العنوان يسم موضوعة theme النّص. الموضوعة هي فرضيّة حول ما يتكلّم عنه النّصّ تبعا لمبادرة القارئ، فرضيّة تهدف إلى ضبط أو اختزال التّدليل la semiosis وتوجيه منحى تحقيقات محتوى النّصّ. الموضوعة، باعتبارها وسيلة نصّيّة واصفة أو خطاطة مقصية (في مصطلحات بيرس Peirce)، تتوحّد إذن مع النّصّ ليس عن طريق دليل معادل بل عن طريق سهم استدلال (إيكو 1979). من الواضح، أنّ القاعدة التي تقول بأنّ العنوان يشير إلى الموضوعة قد لا تتّبع، حيث تفشل فرضيّة القارئ، المبنية بالذّات استنادا لقاعدة مثل هذه. ما قلناه ينطبق مع أضافته السّيميائيّات الغريماصيّة بخصوص تمفصل المستويات التّصويريّة والموضوعاتيّة المكوّنة للمركّبة الدّلاليّة للخطاب، بالمعنى الذي لا يحقّق فيه المستوى التّصويري الاكتفاء الذّاتي أبدا –على خلاف المستوى الموضوعاتي – فيتّخذ صيغة مجرّدة تمنحه معنى (يمكن القول بأنّه إذا كان التّصويريّ يدور حول نفسه، يكون فعلا، بلامعنى، مجرّدا من المعنى، في المنحيين الذين يدرك فيهما المصطلح: الوجهة والدّلالة)؛ المسافة التي تقود من المستوى التّصويريّ نحو المستوى الموضوعاتي هي مسافة قراءة مقطوعة بواسطة طرق تحويل دلاليّ (في الخطاب الأدبيّ، إنّه إضافة إلى ذلك أحد الفضاءات حيث المتلفّظ له يمارس كفاءته). لنؤكّد من جهة أخرى بأنّ الفكرة التي مفادها أنّ العنوان هو مؤشّر على موضوعة النّصّ تطابق التّعريف المعطى من طرف هارالد فاينريش Harald Weinrich (1976)، الذي نشاطره فيه تماما، والذي حسبه العنوان هو تعليمة لغويّة صغرى من التّرقّبات أو التّوقّعات حول النّصّ.

2. إنّها الوظيفة التي تسمح بالإدماج التّامّ للعنوان في نظريّة للقراءة. من بين هذه النّظريّات، إنّها في تقديري نظريّة فولفانغ أيزر Wolfgang Iser التي تضع في حسبانها أكثر من غيرها اشتغال العنوان. كما نعرف، فكرة أيزر أنّ عمليّة القراءة نفسها هي عنصر أساسيّ في بنية النّصّ، حيث <<مواضع عدم التّحديد>> تستوجب تحديدا من طرف القارئ. العنوان بدون شكّ هو المستبعد الأوّل من أعمال أيزر Iser (لم يتحدّث عنه في أيّ موضع)، لكنّه يحضى بمكانة مفضّلة مدمجة فيها، على قدر ما هو متصوّر باعتباره من هذه المواضع الأولى لعدم التّحديد: فما دام، بوظيفته اللغويّة، تعليقا على النّصّ، يفتح فضاء للتّقييم أو التّقدير والّذي لن يغلق، في أحسن الحالات، إلاّ في اللّحظة التي يقرأ فيها النّصّ في جميع امتداداته –على القارئ أن يقدّر حينئذ إفادة هذا التّعليق ونوعيّته.

3. إنّها الوظيفة التي تسمح بتوزيع فئويّ لمختلف أنماط العلاقات بين العنوان والنّصّ. هكذا، فإنّ الخلاصة التي ترى بأنّ عنوانا معطى هو موضوعاتيّ (سواء كان ذلك حرفيّا، كنائيّا، استعاريّا أو

ساخرا) أو ريماتيّ rhematique -في التّوزيع الفئويّ الحذر عند جينيت (1987) - أو، لتقديم مثل آخر، إطنابيّ لأقصى حدّ أو إبلاغيّ لأقصى الحدود -في التّوزيع الفئويّ التّدريجيّ لهولندر (1975) - غير ممكنة إلاّ بفضل الوظيفة اللّغويّة الواصفة لهذا العنوان: لا نستطيع الوصول إليها إلاّ بعد ولوج النّصّ وبعد المجازفة بفرضيّات قراءة. بعيدا عن هذه الفائدة، يجب عدم إهمال جدوى هذا النّوع من التّصنيفات: توزيعها الفئويّ لعناوين مدوّنة محدّدة في مجموع محدود وثابت من الأنماط يمكنه أن يحدّ من الانحراف التّأويليّ الذي يقع فيه المؤلّفون الذين يبدو أحيانا أنّهم يعتبرون العنوان كبذرة للعمل نفسه (لنتذكّر بعض قراءات درّيدا Derrida أو ريفاتير Riffaterre، بدون شكّ هي نفّاذة لكنّها في نفس الوقت متعسّفة). من الواضح أنّه، وضع عنوان خاصّ في فئة نمط من العناوين، في نطاق تصنيف لهذه الخصائص، ليس سوى واحدا من أوجه متعدّدة تشكّل معنى العمل.

ترمي الاعتبارات السّابقة إلى شجب حدود الدّراسات المحافظة على العنوان باعتباره شكلا مكتفيا بنفسه ومستقلاّ عن النّصّ، وبالتّالي فهي لا تفحص سوى الوجه الأكثر بروزا وسطحيّة. نتيجة للموقع الثّابت والمنفصل الذي يشغله، يمثّل العنوان عنصرا من السّهل التّعرّف عليه، ومقارنة بالنّصّ (ذو الأبعاد الأوسع كثيرا عامّة)، من السّهل استعماله أيضا. إنّها بدون شك هذه السّهولة هي التي تفسّر التّوجّه لبناء مدوّنات من العناوين استنادا على مقاييس مثل المؤلّف (عناوين جان بروس Jean Bruce)، الجنس (العناوين في الشّعر)، المدرسة أو الحركة (العناوين السّرياليّة)، الخ.، والقيام فيما بعد بوصف الخصائص (الصّوتيّة، الصّرفيّة، التّركيبيّة، المعجميّة). إذ عن طريق تلافي الدّخول في النّصّ، يحوّل هذا النّمط من الدّراسات هذا الملفوظ من الدّرجة الثّانية الذي هو العنوان إلى ملفوظ من الدّرجة الأولى. باختصار، تجعل من العنوان ملفوظا بدون تلفّظ، قطعة من سنن بدون رسالة، شكلا بدون وظيفة.

الإحالات

◆حصل هذا العمل على مساعدات وزارة التربية والثقافة الإسبانية (مشروع BFF2001-3866) ومحافظة كاتالونيا (مشروع SGR2000-00001).

نشر في سلسلة الوقائع السّيميائيّة الجديدة Nouveaux Actes Semiotiques ، عدد 82، سنة 2002، المطبوعات الجامعيّة في ليموج PULIM, Universite de Limoge بفرنسا.

(1) لا يذكر جينيت Genette (1987 : 77) كريبكه Kripke، لكن يبدو أنّه يلمّح إليه عندما يؤكّد بأنّه، في جملة من مثل <<هل أنت هو الأحمر والأسود؟>>، تكون علاقة العنوان مع عمل ستندال Stendhal تواضعيّة محضة، هي <<تعيين صارم، أو تعريف>> (العلامات التّمييزيّة من عندنا).

(2) نصّ بروست Proust معبّر تماما عن هذا المعنى: فأوّل إشارة إلى عمل الستير Elstir لم تتمّ بدون استعمال لفظة <<لوحة>> مرفوقة ببعض الدّلائل الإضافيّة (الحافز الغرضيّ الذي يمنح عنوانا للّوحة وكذلك ظروف تشكيله وتذوّقه): <<في لوحة تمثّل ميناء كاركثويت، لوحة أكملها منذ أيّام قليلة والتي بقيت أشاهدها بتملّ>> (البحث، الجزء II، غاليمار، بليّاد، 1987، ص. 192). إنّه بفضل هذه الملاحظة الافتتاحيّة أصبحت الإشارة إلى اللوحة في صفحات تالية (210) ممكنة فقط بعنوانها، بدون اللّجوء إلى وسائط لغويّة أخرى (مثل أيّة لوحة حقيقيّة)، ودخلت في مصاف سنن الأعمال المذكورة في عالم تمثيل البحث.

(3) يلمّح عنوان فولكنر Faulkner خاصّة إلى هذه العبارات القاطعة التي يتلفّظ بها ماكبث Macbeth في الفصل V، المشهد V :

((Life's but a walking shadow, a poor player/ that struts and frets his hour upon theistage/ and then is heard no more. It is a tale/ told by an idiot, full *of sound and fury*, I signifying nothing))

(الفصل V ، المشهد V ؛ التّأكيد من عندنا). طبعا، للتّلميح وضع ملتبس: كما أراده هامون Hamon (1977 : 277، ملاحظة 31)، هو <<اختيار عبور ثقافيّ>> بالنّسبة للقارئ، الذي قد لا يكتشفه؛ وإذا ما حصل الاكتشاف، يستدعي في المقابل شعورا مبطّنا سارّا في فضاء معرفيّ متقاسم.

(4) لابدّ من ملاحظة أنّ المصطلح <<مرجعيّ>> المستخدم من طرف فريق م (1970) يكون مناسبا للتّعرّف ليس على هذه الوظيفة الثّانية للعنوان، بل على الأولى –لنتذكّر بأنّه اللّفظ المنتقى من طرف كونتوروبكز Kantorowicz(1986) - كما يصدر عن ا -تنظير فويّو Vouilloux (1985) حول المرجع، الذي التزمنا به تماما، و ب - المفهوم التّقليديّ لاسم العلم باعتباره اسما لا يملك سوى مرجعا (عوض أن يكون له معنى).

(5) يمكن لوضعيّة المقدّمة الخاصّة في الواقع أن تقارن بوضعيّة العنوان من نقاط عدّة. فالمقدّمة مثل العنوان، هي نصّ واصف سياقيّ، لأنّه يحكم على النّصّ قبل قراءة هذا الأخير. نحيل على المعالجة الهامّة للكوانتر Lecointre ولوغاليوط Le Galiot (1979 : 666)، اللّذان يعتبران المقدّمة كموقع التباس أساسيّ سواء في مستوى زمنيّة كتابتها أو في مستوى موضوعتها. بخصوص ما يتعلّق بالمستوى الأوّل، يؤكّد المؤلّفون أنّه، لكونها تقدّم سابقة على النّصّ (هو فعل تلفّظ استشرافيّ)، يعلن عن الخطاب الي سيتبعه في فضاء الكتاب)، تبدو المقدّمة دوما منتجة فيما بعد الكتابة. لكن ما بين اللّحظتين، <<دوافع>> نشاط الكتابة تكون قد خمدت، وبالنسبة للكاتب، يكون النّص قد <<وضع>> بعيدا، أصبح شيئا آخر قابلا للموضعة>>. لذا فهي لم تعد نصّا ولكنّها أصبحت <<قراءة للنّصّ>>، فما هو مدلول في المقدمة وما يحدّد وظيفتها الصّيغيّة: هي القراءة الأولى، بصفة لاواعية، مع هذه المسافة النّقدية التي تعقّمها وتجعلها معقلنة: اللّبس الذي يقع في المستوى الثّاني هو أيضا جدير بالملاحظة: الذّات المتلفّظة بالمقدّمة (والتي هي ملفوظة في نفس الوقت فيها) تحضر دوما كمنتج للنّصّ، لكنّ هذه الذّات هي كيان أنهكته الكتابة: <<أنا النّصّ هي آخر>>. أيضا، <<مهما كان قياس المابعد الذي تكتب فيه المقدّمة، لن تستطيع الذّات أن تطالب بمكانة الكاتب إلاّ عن طريق اللّعب بالكلمات>>.

(6) التّأكيد من عندنا.

(7) يحمل مقال ميلهوت Mailhot (1985) عنوان <<النّصّ الواصف الكامي (نسبة إلى كامي): عناوين، إهداءات، تصديرات، مقدّمات>>، لكن المعالجة الأولى لما بين العناوين من تفاعلات، جاء <<النّصّ الواصف>> مسبوقا بـ<<تصدير>>: <<على حدود النّصّ: تصدير، نصّ واصف>>.

(8) تفسير هذا المفهوم تمّ تدقيقه وإثراؤه من طرف كورتيس Courtes (1991 : 17) لمّا يستعين بـ<<صعيد التّعبير>> وبـ<<شكل المحتوى>>: على صعيد الخطاب يستنتج، كما يشير في الواقع كورتيس Courtes، بأنّ <<عبارتين معطاتين –واحدة قصيرة، الأخرى طويلة، على صعيد التّعبير – يمكن أن يتعرّف عليهما، والحال هذه، كمتعادلين على مستوى شكل المحتوى. تحضر في هذه الحالة، في الواقع، الظّاهرة التي تسمّى قابليّة الخطاب للتّمطيط>>.

(9) ملاحظتان في المنهج: يبدو هوك Hoek يقاسم كابيلو Cappello نفس النّظرة، لكن بدون إثارة مفهوم الشّرح بالمرّة، وعنده لا تكون العلاقة بين التّوسّع والتّكثيف مشتقّة من شيء مسبق.

(10) لايبدو موقف غولدنشتاين Goldenstein (1990 : 68) مختلفا عن موقفي كلّ من كابيلّو Cappello وهوك Hoek: كما رأينا أعلاه، بالنّسبة لغولدنشتاين للعنوان، من بين صفات أخرى، وظيفة اختزاليّة (يلخّص محتوى النّصّ). لابدّ من القول بأنّ هذا التّعميم المبالغ فيه يوجد في عدد كبير من تعريفات العنوان: بالنّسبة لكلّ من ميرشيز Marchese وفورّاديلاّص Forradilas (1986 : 404 -405)، مثلا، ما العنوان سوى معلومة تكثّف الرّسالة كاملة في النّصّ.

(11) هنا أيضا، المعجم النّقديّ غنيّ ومتنوّع. يتحدّث فريق م (1970) عن وظيفة معرفيّة؛ قريفل Grivel (1973 : 170) بالنّسبة إليه، هي وظيفة إشهاريّة، مادام العنوان هو مروّج الكتاب، وإذن <<علامة إجباريّة تغلّف السّلعة، تعمل على ضمان النّوعيّة بالنّسبة لأكبر ما يمكن من عدد المشترين (أو لفريق مميّز من المشترين)؛ بارثس (1973 : 34) يفضّل مصطلح مشهّي aperitive (يتعلّق الأمر بـ<<إثارة شهيّة القارئ>>، طريقة تشبه عمليّة التّشويق)؛ أخيرا، يوافق كلّ من ميتران (1979) وبومارشيه وآل. (1987) على التّوالي على محرّض incitative وترقويّ promotionnelle.

(12) يصنّف مولينو وآل.(1974) عناوين روايات الجوسسة لبريس المندرجة في سلسلة OSS117 (مجموعها 87) في خمسة مجموعات كبيرة، منها <<المستوى الصّوتي>> (المجموعات الأخرى هي الحضور، في العنوان، لـ<<OSS117>>، المستوى الإصطلاحي، المستوى الدّلالي والمستوى التّكوّنيّ التّركيبي). أمّا بخصوص المستوى الصّوتي، الملمح المفيد الذي يتمسّك به يتمثّل فيما يحدثه الجناس الصّوتيّ، الذي يندرج فيه 24 عنوان من المدوّنة (نذكر فقط بعض الأمثلة: Double bang a Bangkok، Arizona، Zone A، Metamorphose a Formose، Du lest a l`est و Cinq gars pour Singapour).

(13) يتحدّث برغسون Bergson (1899 : 11 -12) هذه الممارسات التي تتمثّل في أنّه بينما كانت المأساة تقدّم على الخشبة فردا فريدا من نوعه، تقدّم الملهاة أنماطا من الطّباع، أوجه مألوفة: <<إنّ دراما ما، حتّى وإن كانت ترسم لنا عواطف أو نقائص تحمل اسما، تدمجها جيّدا في الشّخصيّات لدرجة أنّ أسماءهم تنسى، وطبائعهم العامّة تمّحي، فلا نفكّر أبدا فيها، لكن في الشّخصيّة التي تمتصّها؛ لهذا فإنّ عنوان درما لا يكاد يمكنه أن يكون سوى اسم علم. على العكس، عدد من الملاهي تحمل اسما مشتركا: البخيل l`Avare، اللاّعب le Joueur، الخ. : <<إذا ما طلبت منك أن تتصوّر مسرحيّة يمكنها أن تسمّى الغيور le jaloux، مثلا، سوف ترى بأنّ سغانارال Sganarelle سوف يحضر في ذهنك، أو جورج داندان Georges Dandin، لكن ليس عطيل Othello؛ فالغيور le jaloux لا يمكن أن تكون سوى ملهاة. لأنّ النّقص الباعث على السّخرية والمتجلّي يتّحد أيضا بالشّدّة القصوى بالأشخاص، فلا تحافظ على وجودها المستقلّ والبسيط؛ تبقى الشّخصيّة المركزيّة، غير مرئيّة وحاضرة، والتي تتعلّق بها الشّخصيّات من لحم ودم على الخشبة>>.

(14) لنذكّر بأنّنا عرّفنا أعلاه التّلميح على أنّه غياب للمكوّنات الصّوريّة للمرجع.

(15) أنظر ما سبق. هامش 12.

(16) الصخرة التي تنمو، المرأة الخائنة والمارق هي عناوين لروايات قصيرة لكامي ذكرها فينريش.

(17) على طريقة سارّازين، استعمل بارثس نفسه هذا الفضاء المموّل. فكان لابدّ في الواقع من انتظار حتّى الفصل XLVII (بالضّبط عند منتصف الكتاب، الذي يضمّ ثلاثة وتسعين فصلا) للحصول على الجواب عن السّؤال المطروح من خلال العنوان (ما هو S/Z؟):

<<سارّازين: تبعا لأعراف علم التّسميات الفرنسيّ، ينتظر أن يكون: SarraSine: بالمرور إلى الإسم العائليّ، سقط Z في فجوة ما. فZ هو حرف البتر>>. (ص113). لنذكّر بأنّ سارّازين خصيّ.

(18) Steal This Book هو عنوان يشير إليه أيضا كانتوروويكس Kantorowicz (1986)، في التقنية (4) (c).

(19) أنظر على التوالي Estio(القصيدة 91) و Diario de un poeta reciencasado (القصيدتان 108 و 186).

(20) كما هو معروف، مقاييس النّصيّة هي الانسجام، التّماسك، القصديّة، المقبوليّة، الإبلاغيّة، الوضعياتيّة والتّناصّ.

تمّت التّرجمة بأولاد يعيش بالبليدة بتاريخ 2004/09/30

قائمة المراجع

Adam, Hazard (1987). Titles, titling, and entitlement to. The Journal of Aesthetics and Art Criticism 46, 7-2.

Adorno, Theodor (1984 [1962]). Titres. Pour paraphraser Lessing. Dans Notes sur la litterature, 239-248. Paris: Flammarion.

Barthe, John (1984). The title of book. Dans The Friday Book. Essays and other nonfiction, ix-xii. New York: Putnam.

Barthes, Roland (1964). Elements de semiologie. Communications 4, 91-135.

-(1970). S/Z. Paris: Seuil.

-(1973). Analyse textuelle d'un conte d'Edgar Poe. Dans Semiotique narrative et textuelle, Claude Chabrol (ed.), 29-54. Paris: Larousse.

Bauret, Gabriel (1977). La peinture et son commentaire: le metalangage du tableau. Litterature 27,25-34.

Beaugrande, Robert de et Dressler, Wolfgang (1981). Introduction to text linguistics. Londres: Longman.

Beaumarchais, Jean-Pierre de, Couty, Daniel et Rey, Alain (1987). Dictionnaire des litteratures de langue francaise. Paris: Bordas.

Bergson, Henri (1972 [1899]). Le rire. Essai sur la signification du comique. Paris: PUF.

Bokobza, Serge F. (1984). Deictique, enonciatrice et poetique: les fonctions du titre. French Literature Series 11,33-46.

Cappello, Giovanni (1992). Retorica del titolo. Dans Il titolo e il testo. Atti del XV Convegno Intruniversitario, Michele A.Cortelazzo (ed.), 11-26. Padoue: Programma.

Compagnon, Antoine (1979). La seconde main ou le travail de la citation. Paris: Seuil.

Coserio, Eugenio (1989 [1956]). Determinacion y entorno. Dos problemas de una linguistica del hablar. Dans Teoria del lenguaje y linguistica general, 282-323. Madrid: Gredos.

Courtes, joseph (1991). Analyse semiotique du discours. De l'enonce a l'enonciation. Paris: Hachette.

Dardel, Robert de (1988). Le titre: essai de systematisation. Dans Aspets de linguistique francaise. Hommage a Q.I.M. Mok, Ronald Landher (ed.), 77-89. Amesterdam: Rodopi.

Derrida, Jacques (1972 [1970]). La double séance. Dans La dissemination, 215-348. Paris: Seuil.

-(1986 [1976]). Titre a preciser. Dans Parages, 219-247. Paris: Galilee.

Duchet, Claude (1973), La fille abandonnee et la bete humaine, elements de titrologie romanesque. Litterature 12, 49-73.

Eco, Umberto (1979), Lector in fabula. La cooprerazione interpretativa nel testo narrativo. Milano: Bompiani.

Fournier, Henri (1825).Traite de la typologie, Paris: Imprimerie de H.Fournier.

Fuchs, Catherine (1982). La paraphrase. Paris: PUF.

Garcia Sanchez, Javier (1989). Amanecera en tus parpados... El Pais, 21 fevrier, 10.

Genette, Gerard (1982). Palimpsestes. La letterature au second degre. Paris: Seuil.

-(1987). Seuils. Paris: Seuil.

Goldenstein, Jean-Pierre (1990). Lire les titres. Dans entrees en litterature, 67-84: Hachette.

Greimas, Algirdas-Julien (1983 [1979]). Des accidents dans les sciences dites humaines. Dans Du sens II. Essais semiotiques, 171-212. Paris: Seuil.

Greimas, Algerdas-Julien et Courtes, Josef (1979). Semiotique. Dictionnaire raisonnee de la theorie du langage, vol.I. Paris: Hachette.

Grivel, Charles (1973). Production de l`interet romanesque. La Hague-Paris: Mouton.

Groupe u (1970). Titres de films. Communications 16, 94-102.

Gueunier, Nicole (1991). Une forme breve: la paremie d`origine evangelique et son usage dans les titres litteraires en francais. Dans Formes litteraires breves, 261-277. Wroclaw.

Hamon, Philippe (1977). Texte litteraire et metalangage. Poetique 31, 261-284.

Hoek, Leo H. (1981). La marque du titre. Dispositifs semiotiques d`une pratique textuelle. La Hague-Paris-New York: Mouton.

Hollander, John (1975). "Haddocks`Eyes": a note on the theory of titles. Dans vision and resonance. Two senses of poetic form. New York: Oxford University Press, 212-226.

Iser, Wolfgang (1970). Die Appellstruktur der texte. Unbestimmtheit als Wirkungsbedingungen literarischer Prosa. Dans Rezeptionsasthetik. Theorie und Praxis, Rainer Warning (ed.), 228-252. Munich: Fink, 1975.

Kantorwics, Colette (1986). Eloquence des titres. Unpublisched Ph.D.dissertation, New York University.

Koch, Walter A. (1994). Simple forme. An encyclopaedia of simple text-types in lore and literature. Bochum: Universitatsverlag Dr. Norbert Brockmeyer.

Kripke, Saul A. (1972). Naming and necessity. Dans Semantics of natural langage, Donald Davidson et Gilbert Harman (eds.), 253-355. Dordrecht: Reidel.

Lecerf, Yves (1974). Des poemes. Poetique 18, 137-159.

Lecointre, Simone and Le Galliot, Jean (1979). Texte et pretexte: essai sur la preface du roman classique. Dans A semiotic landscape, Seymour Chatman, Umberto Eco et Jean-Marie Klinkenberg (eds.), 666-670. La Hague-Paris-New York: Mouton.

Levin, Harry (1977). The title as a literary genre. The Modern Langage Review LXXII, 4, xxiii-xxxvi.

Maillot, Laurent (1985). Le metatexte camusien: titres, dedicaces, epigraphes, prefaces. Dans Albert Camus: oeuvre ferme, oeuvre ouverte?, Raymond Gay-Crosier et Jacquline Levi-Valensi (eds.), 285-308. Paris: Gallimard.

Marchese, Angelo et Forradellas, Joaquin (1986). Dictionario de rtorica, critica y terminologia literaria. Barcelone: Ariel.

Mihaila, Rodica (1985). Titlul, metatext si intertext. Studii si cercetari linguistice XXXVI, 1, 73-81.

Mitterand, Henri (1979). Les titres des romans de Guy des Cars. Dans Sociocritique, Claude Duchet (ed.), 89-97. Paris: Nathan.

Molino, Jean et al. (1974). Sur les titres des romans de Jean Bruce. Langages 35,87-116.

Nord, Christiane (1989). Der Titel –ein Mittel zum Text. Uberlegungen zu Status und Funktionen des Titels. Dans Sprechen und Horen, Norbert Reiter (ed.), 519-528. Tubingen: Max Niemeyer.

Parisi, Domenico, Devescopi, Alessandro et Castelfranchi, Cristiano (1979). Che cos`e un titolo? Dans Per un`educazione linguistica razionale, Domenico Parisi (ed.), 95-123. Bologne: Il Mulino.

Rey-Debove, Josette (1979). Essai de typologie semiotique des titres d`oeuvres. Dans A semiotic landscape, Seymour Chatman, Umberto Eco et Jean-Marie Klinkenberg (eds.), 698-701. La Hague-Paris-New York: Mouton.

Vouilloux, Bernard (1985). La Venelle du Sourd. Sur la reference et l`allusion: Gracq, Cezanne, Goya. Poetique 62, 197-214.

Weinrich, Harald (1971). The textual function of the French article. Dans Literary Style: a symposium, Seymour Chatman (ed.), 221-240. Londres –New York: Oxford University Press.